مطالعات

أحمد أبو زيد

الإستشراق والمستشرقون

خلال الاحداث الدامية والحروب الداخلية التي مر بها لبنان عام ٩٧٥ ـ ١٩٧٦ والتي مزقت المجتمع اللبناني شر ممزق كتب احد الصحفيين الفرنسيين بعد زيارة قصيرة الى بيروت يقول « لقد كانت بيروت تبدو في وقت من الاوقات (وقبل أن تمر بهذه الاحداث الدامية) مدينة تنتمي الى الشرق ... الشرق الذي كتب عنه شاتوبريان Chateaubriand' ونيرفال Nerval » .... هذا الشرق الذي كان الى حد كبير (اختراعا اوربيا) والذي كان يعتبر في نظر الكثيرين مركز الرومانسية ، بحيث كان يلهب دائما خيال الكتاب والمكتشفين والمغامرين . ولكن هذه الشرق المتخيل او الخيالي الرائع ، الذي لايكاد الشرقيون انفسهم يتعرفون عليه او يعترفون بوجوده ، أخذ يختفي بسرعة فائقة ... يختفي من الوجود مثلما يختفي من كتابات الكتاب لكي يحل محله شرق آخر اكثر واقعية واشد التصاقا بالحقيقة واكثر ابتعادا عن خيال الرومانسيين . وبدأ الكتاب الغربيون يبذلون جهودا اكثر صدقا لكي يتعرفوا على حقيقة الاوضاع

(●) اعتمد هذا المقال في الاصل على عرض لكتاب من اهم الكتب عن الاستشراق واحدثها جميعا وهو كتاب : ـ
Edward W. Said, **Orientalism**, Routledge and Kegan Paul, London & Henley, 1978.
ولكننا استعنا بالاضافة الى ذلك بعدد كبير من البحوث والكتب الاخرى ، يجد القارىء اشارة الى بعضها في نهاية المقال .

في ذلك الشرق ، وحقيقة أسلوب التفكير الشرقي،ويقدمون بناء على ذلك دراسات أعمق وأصدق تختلف اختلافا كبيرا عن تلك الكتابات التي أسهم بها الروائيون والشعراء والرحالة والمغامرون ، والتي يصورون فيها الشرق والشرقيين ، ليس على ماهم عليه في الحقيقة والواقع ، بل حسب ما كان يتراءى لخيال هؤلاء الكتاب ... ولقد كان الشرقيون ــ ولا يزالون ــ يتألمون ويعجبون حين يقرأون ماكتب عنهم في تلك الكتابات ، ولكن الغريب في الأمر هو ان الكثيرين من هؤلاء الشرقيين أصبحوا يعتقدون ان حياتهم وتفكيرهم وعاداتهم وتقاليدهم وقيمهم هي ماتظهر في تلك الكتابات ، اي انهم أصبحوا ينظرون الى انفسهم بعيون الآخرين ، وهي عيون لم تكن قادرة في معظم الاحيان على التمييز بين الصدق والكذب ، او بين الحقيقة والخيال . ولكن مهما يكن من أمر هذه الكتابات وقربها او بعدها عن الحقيقة والواقع فانها تؤلف جانبا كبيرا من أحد مجالات المعرفة الانسانية التي تحتل مكانة مرموقة بين سائر المعارف ، بحيث انشئت من اجلها مقررات في الجامعات ، بل ومعاهد وكليات ، ونعني بها مايطلق عليه عموما (الاستشراق Orientalism) ، وهي تسمية لها دلالتها بقدر مايحيط بها من غموض او عدم وضوح . وربما كان هذا الغموض احد الاسباب الأساسية التي ساعدت ــ رغم ماقد يبدو في ذلك من تناقض ــ على تقدم الدراسات الاستشراقية واحتلالها لهذه المكانة ، بالنسبة لنا من ناحية ، وبالنسبة لاعداد كبيرة جدا من الباحثين والعلماء والمثقفين في مختلف انحاء العالم من ناحية اخرى .

ولقد اختلف الغربيون اختلافا كبيرا في تصورهم لمفهوم الشرق . فالامريكيون مثلا حين يتكلمون في دراساتهم عن الشرق والاستشراق والمستشرقين انما يعنون بوجه خاص الشرق الاقصى والصين واليابان ، والمختصين في ثقافتها وشعوبها ، وهم في ذلك يختلفون عن الفرنسيين والبريطانيين الذين يعتبرون الشرق هو (الشرق) المجاور لأوروبا ، والذي كان ولا يزال يرتبط بالغرب ارتباطا وثيقا ، والذي كان يؤلف (اقرب) واعظم واغنى واقدم مستعمرات الغرب ، كما كان مصدر حضارته ولغاته ، وفي الوقت ذاته يعتبر ــ او كان كذلك في بعض مراحل تاريخه على الاقل ، منافسا وغريما ثقافيا له ، بحيث لايكاد (الغرب) يفهم الآن الا بالاشارة الى الشرق والعكس بالعكس . والواقع ان فكرة (الشرق) تستخدم في كثير من الاحيان لتوضيح فكرة (الغرب) على اعتبار ان بينهما ــ كما يقول ادوارد سعيد ــ كثيرا من التقابل بل والتناقض ... فهما نقيضان في كل شيء تقريبا ... في الصورة والشكل والفكرة والشخصية والتجربة ... ولكن هذا يجب الا يعني ان فكرة الشرق فكرة خيالية تماما ، فلقد كان الشرق دائما جزءا متكاملا مع الحضارة الأوروبية **المادية** ، كما ان الاستشراق يعبر عن هذا **الجزء** ثقافيــا وايديولوجيا ، وذلك عن طريق التوفر على دراسة كل ماهو شرقي وكل مايمت الى الشرق بصلة ، واستخدام نتائج هذه الدراسة في مختلف المجالات ، سواء المجالات العلمية الاكاديمية البحتة ، او المجالات السياسية بما في ذلك العمل على توطيد اقدام الاستعمار في الشرق واخضاع شعوبه لسيطرة الغرب المستعمر .

وعلى اية حال ، فان **الاستشراق** يؤخذ عادة بعدة معان ، ولكنها كلها معان متداخلة ومتكاملة .. ولعل اهم معنى للكلمة هو المعنى الاكاديمي حيث تطلق كلمة مستشرق ــ بشيء غير قليل من التجوز ــ على كل من يتخصص في أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب أو

بعيد . وحتى عهد قريب جدا كانت هذه الكلمة تطلق على دارسي الآداب الشرقية او اللغات الشرقية او المتخصص في تاريخ احدى الدول الشرقية ، او حتى المتخصص في سوسيولوجية او انثربولوجية الشعوب الشرقية ، او ما الى ذلك . ويبدو ان هذا الميل القديم لاطلاق مصطلح استشراق على كل هذه الدراسات المتعددة المتباعدة المتباينة بدا الان في الانحسار، اذ لاتكاد تجد عالم الانثروبولوجيا مثلا الذي يدرس احدى الثقافات الشرقية يسمي نفسه مستشرقا على ما كان يحدث في القرن التاسع عشر واوائل هذا القرن . وهذه مسألة سوف نعود اليها مرة اخرى فيما بعد ، ولكن المهم هنا هو ان كلمة استشراق وكلمة مستشرق اخذ تاريق الاختفاء في الاوساط العلمية والاكاديمية لتحل محلهما كلمات اخرى اكثر دلالة على التخصص العلمي .

وثمة مفهوم آخر للاستشراق اكثر عمومية وهو اعتبار الاستشراق اسلوبا للتفكير يرتكز على التمييز الانطولوجي والابستمولوجي بين الشرق Orient والغرب Occident ولقد ادى هذا المفهوم بعدد كبير من الكتاب ـ ويدخل في ذلك الروائيون والشعراء والفلاسفة والمنظرون السياسيون ، بل وايضا الاقتصاديون ورجال الحكم والادارة ايام الاستعمار ـ الى ان يتقبلوا فكرة التمييز بين الشرق والغرب كنقطة انطلاق لاقامة نظرياتهم ، او وضع رواياتهم وملاحمهم (مثل انشودة رولان المشهورة La Chanson de Roland) وكتاباتهم الاجتماعية ودراساتهم المختلفة عن النمو الاقتصادي للشرق وافكارهم الخاصة عن الشعوب الشرقية وعاداتها و (عقلياتها) ومصائرها وما الى ذلك . وهذا المفهوم الواسع الفضفاض لكلمة (استشراق) يسمح لنا بان ندخل في عداد المهتمين بالشرق كل فئات الكتاب والمفكرين والادباء وغيرهم ممن عالجوا (حياة الشرق) في مؤلفاتهم بصرف النظر عن ماهية هذه المؤلفات ، وبذلك يمكن أن يندرج فيهم ايسكيلوس Asschylus مثلا وفيكتور هيجو Victor Hugo ودانتي Dante وكارل ماركس وغيرهم . الا ان هذا المفهوم يصطدم بعقبات كثيرة هامة تتعلق في الاغلب بالمنهج العلمي . ومع اهمية بعض هذه الكتابات من حيث انها تلقي اضواء كثيرة على مفهوم (الغربيين) عن الشرق والشرقيين فانها في غالبيتها تخرج عن النطاق العلمي الدقيق ويدخل معظمها في باب التخيل الذي لايخلو من تحامل وجهل كما هو الحال مثلا في كتابة دانتي عن الاسلام ونبي الاسلام والصفات والنعوت التي وصفهما بها .

وليس من شك في أن الانتقال من مفهوم لآخر ، اى بين المفهوم الاكاديمي والمفهوم التخيلي للاستشراق كان قائما طيلة الوقت بحيث كان يحدث كثير من اللبس والخلط بينهما ، ولكنه ازداد بمرور الزمن ثم اصبح أكثر تنظيما في اواخر القرن الثامن عشر ، وادى ذلك بالضرورة الى ظهور مفهوم ثالث للاستشراق كان يتميز على المفهومين الآخرين بوضوح النواحي التاريخية والمادية فيه . وقد تمثل هذا المفهوم بوجه خاص في المحاولات الكثيرة التى قام بها المتخصصون في الدراسات الشرقية لاقامة نظريات منهجية متماسكة ومنطقية تعبر عن وجهات نظر محددة، وتستند الى معلومات دقيقة ويقينية بقدر الامكان ، ثم تدريس هذه النظريات ومحاولة نشرها على نطاق واسع بحيث اصبح الاستشراق في آخر الامر اسلوبا (غربيا) لفهم الشرق والسيطرة عليه ومحاولة اعادة تنظيمه وبنائه وتوجيهه والتحكم فيه ، وباختصار شديد اصبح هذا المفهوم للاستشراق يهدف في آخر الامر لاخضاع الشرق للغرب . لقد اصبح الاستشراق

اداة ووسيلة للتعبير عن التناقض والتباين بين الشرق والغرب ، وهذه فكرة استخدمها ميشيل فوكو Michel Foucault في الاصل ووجدت لها صدى واسعا . والواقع انه بدون هذه الفكرة فلن نستطيع ان نفهم الطريقة التي امكن للثقافة الاوروبية ان تدرس بها الشرق سياسيا واجتماعيا وايديولوجيا وعلميا بل و (خياليا) كذلك ، ان امكن استخدام هذه الكلمة هنا ، اثناء فترة مابعد عصر التنوير . ومنذ ذلك الحين اصبح الاستشراق يحتل مكانة هامة بين مختلف مجالات العلم والمعرفة . ويفرض موضوعات معينة تدرس بطريقة معينة بالذات . ولا يعني ذلك أن الاستشراق ، كموضوع للتخصص ، كان يحدد على المتخصصين مايمكن أن يقال ومالا يقال عن الشرق ، بل انه يعني ان الاستشراق اصبح مجموعة الاهتمامات التي كان يجب ان يأخذها الباحث والمختص في اعتباره حين يتعرض لدراسة موضوع يتعلق بالشرق .

ولقد كان هناك دائما اختلافات واسعة بين اهتمامات الفرنسيين والبريطانيين من ناحية ، واهتمامات الامريكيين من الناحية الاخرى ، فيما يتعلق بدراسة الشرق ومجالات هذه الدراسة . لقد كانت فكرة الاستشراق في الاصل ، وحتى الحرب العالمية الثانية (مشروعا) ثقافيا بريطانيا وفرنسيا الى حد كبير ، وكان هذا (المشروع) من السعة والتنوع بحيث كان يمتد ليشمل كل الشرق ، بما فيها الاراضي المقدسة من ناحية ، والهند من الناحية الاخرى . وبحيث كان يغطي موضوعات متباينة تتراوح بين البحوث العلمية والفرق والمذاهب الدينية وتجارة التوابل والجيوش الاستعمارية والفلسفات والحكم التي امكن تطويعها بحيث تلائم الذوق الغربي ، وقائمة طويلة جدا من الموضوعات الاخرى المختلفة التي تكشف عن تفاوت وتنوع الاهتمامات ومدى هذا التفاوت والتنوع . ولقد ظل هذا الاهتمام الناجم الى حد كبير عن القرب الفيزيقي قاصرا على بريطانيا وفرنسا الى ان تمكنت امريكا بعد الحرب العالمية الثانية من السيطرة على (الشرق) واصبحت تلعب بالنسبة له الدور الذي كانت تلعبه تلك الدولتان من قبل . وعلى اية حال فان هذا الاتصال بالشرق كان خصبا وكانت حصيلته هائلة ، وهذه الحصيلة هي التي تؤلف الآن المادة العلمية للاستشراق .

• • •

وليس الشرق مجرد فكرة خيالية في اذهان الكتاب ، وانما هو واقع تاريخي وجغرافي ، صنعه الشرقيون بانفسهم لانفسهم بنفس الطريقة وبنفس المعنى اللذين تقول بهما ان الغرب واقع تاريخي وجغرافي صنعه الغربيون بانفسهم لانفسهم وبجهودهم الخاصة . فلكل من الشرق والغرب تاريخ ومنهج فكري واسلوب للحياة وطريقة للتعامل خاصة به ، وان كان كل من هذين (الكيانين) التاريخيين والجغرافيين يستمد وجوده بشكل ما من وجود الاخر ويساعد في الوقت ذاته على فهمه . الا ان هذا يجب أن يؤخذ بشيء من التحفظ الذي يتمثل في :

اولا ـ اذا كان من الخطأ اعتبار الشرق على انه بالضرورة فكرة او انه (كيان) لايتمتع بوجود حقيقي فان هذا لايعني ابدا انه لم يكن قادرا على اثارة خيال الكتاب ، أو ان اهتمام الغربيين به كان يرجع الى اسباب عملية واهداف نفعية بحتة ، حين يتعرض لدراسة اي موضوع يتعلق بالشرق .

وحين قال دزرائيلي Disraeli في روايته Tancred ان الشرق « مهنة » فانه كان يعني فقط انه كان دائما خليقا باثارة اهتمام الشبان اللامعين في بلاد الغرب ، بحيث كان يستغرق كل خيالهم ووجدانهم ، ولم يكن يعني ابدا ان الشرق كان مجرد مهنة وعملا يتعيش منه هؤلاء (السكان) اللامعون الذين اتيحت لهم فرصة العمل في الشرق والاقامة فيه .

ثانيا ــ انه من الصعب دراسة الثقافات والتواريخ دون أن تتطرق في الوقت ذاته الى قوة هذه الثقافات وعمقها والدور الذي يلعبه التاريخ في تعميق هذه الثقافات وارساء قواعدها. ولذا فان من الخطأ والخطر أن تعتقد أن الشرق والاستشراق مجرد (خلق وهمي) أو ضرورة من صنع الخيال . ولقد كانت العلاقة بين الشرق والغرب علاقة قوة وسيطرة نجد لهما تعبيرا في عناوين الكتب الكثيرة التي تعرضت لتلك العلاقة مثل كتاب بانيكار Panikar عن « آسيا والسيطرة الغربية Asia and Western Dominance » . فظهور الاستشراق لم يكن مجرد نتيجة (لاكتشاف) ماهو شرقي على أيدي الاوروبي العادي في القرن التاسع عشر ؛ بل ايضا نتيجة للاعتقاد بأنه يمكن اخضاع الشرق وخلق ما يمكن تسميته (بالشرقي) . وربما كان فلوبير Flaubert خير مثال لذلك . فحين قابل روايته سلامبو Salammbo محظية مصرية فانه يكتب لنا مايصبح مثالا قويا للمرأة الشرقية بسلوكها وقيمها وأنوثتها وتحررها الجنسي ومكانتها بالنسبة للرجل . . . ولم يسمح فلوبير في روايته لكوجول هانم بأن تتكلم ابدا عن نفسها ، أو ان تعبر بطريقتها الخاصة عن مشاعرها وانفعالاتها ووجدانها ، أو ان تبدى شيئا من عواطفها ، أو حتى ان تكشف لنا عن تاريخها من وجهة نظرها وبأسلوبها الخاص ، ولكنه كان هو الذي تكلم عنها وهو الذي حاول ان يصورها لنا حسب ما تراءى له . . . لقد كان رجلا (ذكرا) اجنبيا وغنيا ، وهذه كلها حقائق (تاريخية) تعطى لمن يملكها القدرة على السيطرة والتملك والنفوذ ، وهي كلها عوامل ساعدته ليس فقط على ان « يمتلك » كوجول هانم جسديا ، بل وان يتكلم نيابة عنها ويخبر القراء من كيف انها امرأة شرقية مثالية » أو انها « مثال للمرأة الشرقية » . ويذهب ادوارد سعيد في ذلك الى القول بأن موقف فلوبير المتسلط القوى ازاء كوجول هانم ليس هو المثال الوحيد في هذا الصدد ، وانما هو يمثل نمطا عاما سائدا بين الكتاب فيما يتعلق بالصلة بين الشرق والغرب والتعارض بينهما .

ثالثا ــ يجب الا تعتقد ان « بناء الاستشراق » هو بناء يقوم كلية على الاكاذيب والخرافات ، والاوهام والاساطير والتخيلات التي لاترتكز على وقائع قوية محسوسة وملموسة . واقل مايمكن ان يقال عن الاستشراق انه علامة واضحة لها دلالتها ومغزاها من حيث انه يعبر بشكل قوى عن السيطرة الحقيقية التي تتمتع بها أوربا وامريكا على الشرق . وهذا نفسه انعكاس لواقع لايمكن الشك او التشكيك فيه ، وربما كان هذا من اهم المبررات والدواعي التي تحتم علينا ان نحاول التعمق في التعرف على الجهود التي بذلت لاقامة هذا الصرح القوى المتين من الدراسات المتشابكة المعقدة المتعلقة بالشرق . وليس من شك في ان اى موضوع للبحث والدراسة يستطيع البقاء والصمود مثل كتب ارنست رينان Ernest Renan في الاربعينات من القرن التاسع عشر حتى الآن ، وان يجذب اليه اهتمام كل هذا العدد الوفير من العلماء من انجلترا وفرنسا وبقية انحاء اوربا ، وبخاصة المانيا وايطاليا ، وان ينتقل بعد ذلك

الى امريكا لابد ان يكون شيئا اكثر من مجرد اكاذيب واختلاقات من صنع الخيال ، وان المادة الوفيرة التي جمعت خلال هذه الفترة لابد ان تكون ذخيرة وغذاء لاجيال متعاقبة كثيرة من الباحثين والدارسين . ولايعني هذا ان الاستشراق برىء تماما من الكذب والاختلاق والتوهم التي ينبع بعضها من الجهل والبعض الاخر من الاستعلاء . ولكن من العسف ايضا ان ننكر على الكثيرين من الكتاب مابذلوه من جهد صادق ومن وقت ومال ، وان كانت هذه الجهود كلها تنبع اساسا من فكرة القوة والسيطرة التي كان الغرب يتميز بها على الشرق والتي مكنته من اخضاع الشرق لحكمه واحكامه .

كل هذا معناه أن الاستشراق ــ كما يعتقد الكثيرون من الكتاب الشرقين الذين تعرضوا لهذا الموضوع بالمناقشة ــ ظهر في الاصل استجابة لبعض التنظيمات السياسية ، او على الاقل كانت تلك التنظيمات السياسية احد الدوافع وراء ظهوره كمجال متميز من مجالات المعرفة والدراسة ، وبذلك فان الاستشراق والمعرفة الاستشراقية فيها جانب سياسي لايمكن انكاره ، وهو من هذه الناحية لا يمكن اعتباره معرفة علمية خالصة او موضوعية . ومع أن معالجة فلوبير للشرق في رواية سلامبو مرض جمالي وفني يختلف اختلافا كبيرا عن دراسة سيرها ملتون جب H. A. R. Gibb في كتابه عن « الاتجاهات الحديثة في الاسلام Modern Trends in Islam » والذي يعتبر معرفة علمية هادفة يمكن أن تستغل سياسيا ، فان المعالجتين تصدران عن موقف واحد هو موقف الاستعلاء والرغبة في التحكم والسيطرة ... ومع ذلك فلا يمكن الزعم بان السياسة كانت هي الدافع الوحيد لقيام الاستشراق او الموجه الوحيد للدراسات الخاصة بالشرق ، وانما كانت الظروف والاوضاع الثقافية العامة السائدة في الغرب يتطلب قيام هذا الفرع من المعرفة ايضا . فليس الاستشراق اذن مجرد موضوع سياسي ، كما انه ليس مجرد مجموعة ضخمة من النصوص المتعلقة بالشرق ، او انه مجرد تعبير عن خطة او مؤامرة غربية استعمارية تهدف الى وضع الشرق ، وانما في مكان ادنى واقل من الغرب ، وانما هو مزيج من الادراك الجغرافي السياسي والتعبير عنه جماليا وفنيا وعلميا وسياسيا واجتماعيا وتاريخيا والثربولوجيا ولغويا ، ووسيلة لابراز الاهتمامات العديدة المتباينة والمتضاربة التي تكشف في آخر الامر عن التعارض بل والتناقض بين الشرق والغرب ، رغم مايختفي وراء هذا التعارض والتناقض من تكامل .

●●●

ولقد كتب الشيء الكثير عن الشرق ، وهو مايؤلف مادة الاستشراق .. ومن الصعب الاحاطة بكل ما كتب في الموضوع ، خاصة وان معالجة اى نقطة لا بد من أن تجر الباحث الى نقاط وموضوعات أخرى كثيرة متنوعة ومتشعبة قد لاتخطر للباحث على بال في بداية الامر . وحتى حين يعرض الباحث لدراسة موضوع محدد مثل التجربة البريطانية او الفرنسية عن العرب والاسلام فانه يجد نفسه مضطرا في الاغلب الى ان يتطرق لموضوعات ومجالات اخرى عديدة تخرج عن هذا النطاق المحدود نسبيا وان كانت تتصل به بشكل او بآخر ، وتساعد في القاء الضوء على هذا الموضوع المحدد . فليس من شك في انه قد يكون من الصعب دراسة اهتمامات

الفرنسيين مثلا بالشرق الادنى عموما أو بسوريا ومصر دون أن ناخذ في الاعتبار في الوقت ذاته توسط أوروبا في مناطق أبعد مثل الهند أو فارس، وبالذات الدور الذي لعبته السياسة البريطانية في الهند، وردود أفعال الفرنسيين ازاء قوة بريطانيا المتزايدة في البحر المتوسط والشرق الاقصى ... بل ان هذا نفسه يصدق على أية محاولة لدراسة حياة المستشرقين انفسهم، وبالذات المستشرقين الذين لعبوا دورا رئيسيا في تقدم حركة الاستشراق وتطويرها .. فلم يكن سيلفستر دوساسي Silvestre de Sacy مثلا هو مجرد أول مستشرق أوروبي حديث اهتم بالاسلام والادب العربي وديانة الدروز وتاريخ فارس الساسانية فحسب، وانما كان أيضا استاذ شمبليون Champollion وفرانز بوب Franz Bopp، كما كان مؤسس علم اللغويات المقارن في المانيا . وهذه كلها نواح لابد من ان تؤخذ في الاعتبار حين تدرس حياته واثره في حركة الاستشراق والمستشرقين . وهذا الكلام نفسه يصدق على الكثيرين من كبار المستشرقين مثل ادوارد وليام لين Edward William Lane الذي تعددت مواهبه واهتماماته بحيث تجد كتاباته يقراها الآن علماء متخصصون في عدد كبير من فروع المعرفة، كما هو شأن كتابه عن « المصريين المحدثين Manners and Customs of the Modern Egyptians. الذي قراه عدد كبير من الكتاب وتأثروا به من امثال نيرفال وريتشارد بيرتون Richard Burton وفلوبير نفسه، وكان هذا الكتاب يعتبر بالنسبة لهم ولغيرهم من أهم مصادر المعلومات، وقد استمدوا منه الكثير، واستخدموه في كتاباتهم الخاصة ليس عن مصر فقط بل وعن الشرق كله ؛ أي أنهم كانوا يعممون احكام وآراء لين بحيث تنطبق على المجتمعات والثقافات الشرقية الاخرى . ولقد نقل نيرفال مثلا وهو يتكلم عن سوريا بعض عبارات بحذافيرها من كتاب لين يصف فيه القرية المصرية واعتبرها وصفا دقيقا وصادقا للقرية السورية دون أن يهتم كثيرا بما قد عساه أن يوجد من اختلافات بين نمطي الحياة فيهما . فكان كلام لين كان يستشهد به ويطبق على غير ما كتب في الاصل من أجله، وهذا دليل كاف على مدى ما كان يتمتع به من قوة نفوذ وسطوة في مجال الاستشراق، وأن كلامه كان كثيرا ما يقتبس ويستخدم في مجالات غير تلك التي كتب فيها . وهذا يصدق على كثيرين غير لين مثل بيكر Becker ومولر Müller وشتاينتال Steinthal ونولدكه Noldke وبروكلمان Brockelmann وجولدتسيهر Goldziher . وهذا هو ما كنا نقصده حين قلنا ان اي دراسة للاستشراق تعتبر ناقصة اذا لم تحط بحياة مثل هؤلاء العلماء واعمالهم وتأثيرهم ومدى انتشار تعاليمهم وآرائهم في مختلف المجالات .

والمهم من هذا كله هو ان المستشرقين كانوا يتكلمون عن الشرق كما لو كانوا يعرفونه خيرا من معرفة ابنائه به، وهذا موقف يذكر بغير شك بموقف رجال السياسة والحكم الغربيين ازاء الشرق عموما والبلاد المستعمرة بالذات ... لقد كانت انجلترا وهي تحتل مصر تعتقد انها تعرف مصر معرفة وثيقة واكيدة . بل ان مصر ليست أكثر مما تعرفه انجلترا عنها . وكانت انجلترا (تعرف) أن مصر لايمكنها ان تكون مستقلة أو أن تحكم نفسها بنفسها، أو تتمتع بالحكم الذاتي، ولذا فانها أكدت هذه (المعرفة) باحتلال مصر ... ان مصر هي ما احتلته بريطانيا وما تحكمه بريطانيا ... وعلى ذلك فان الاحتلال الاجنبي اصبح هو الاساس الحقيقي للحضارة

المصرية المعاصرة . . . بل ان مصر كانت تريد من انجلترا ان تحتلها وتلح فى ذلك وتتمسك بهذا الاحتلال . . . لقد كان بالفور Balfour يصف كرومر Cromer بانه **صانع مصر** .

ولقد كانت (المعرفة) التى ترد فى كتابات المستشرقين تستخدم بغير شك فى توطيد اقدام الحكم الاجنبي والاستعمار على ماذكرنا من قبل، ولهذا كان المستعمرون يرسمون للمجتمعات الشرقية ــ وفى ضوء تلك المعلومات ــ ليس فقط حاضرها بل ومستقبلها أيضا ، بحسب ما يتخيلونه انه الافضل لها . ومن هنا كانت الدول الاستعمارية ترفض مطالب تلك الشعوب بالتحرر، وتصف الوطنية والقومية بأنهما ضرب من ضيق الافق والانغلاق والميل الى الانعزال على ما كان كرومر يصف مطالب المصريين بالاستقلال . **فالشرقيون لا يعرفون مصالحهم الحقيقية التي** يعرفها الغربيون نيابة عنهم وبطريقة افضل ، ولذا نصب الغربيون من انفسهم اوصياء على الشرقيين . . . **وفضلا من ذلك فكثيرا ما** كان الشرقيون يظهرون فى كتابات (المستشرقين) ــ **بالمعنى الواسع لهذه الكلمة ــ اناسا** خاملين متبلدين لايملكون الطاقة ولا المقدرة بل ولا الرغبة فى العمل . كما انهم عاجزون عن المبادأة والمبادرة . . ان الشرقيين فى نظر الكثيرين من المستشرقين اقوام يحبون التملك ، كما انهم يفتقرون الى الشعور والاحساس بالام الآخرين، انهم لايعرفون معنى السير فى الطرقات وعلى الارصفة ، لان عقولهم العاجزة الضعيفة لاتكاد تدرك مايدركه الأوروبي بسرعة وتلقائية من ان الطرق والارصفة انما صنعت للسير عليها . . . انهم يميلون بطبعهم الكذب والشك والارتياب فى نوايا الآخرين . . . **انهم لايعرفون معنى الوضوح والصراحة** والاستقامة فى التفكير والسلوك ، وهى كلها امور تميز الخلق البريطاني النبيل . . . وهذه الاقوال والاحكام وامثالها تتردد كثيرا فى كتابات كرومر وامثاله الذين لم يكونوا يهتمون بالشرقيين الا من حيث هم يؤلفون (العنصر) او (المادة) التى يمارسون عليها عملهم ، وهو الحكم .

هذا كله انما يؤكد الرأى الذى سبق ان اشرنا اليه من قبل فى اكثر من موضع من ان الاستشراق يتضمن نوعا من الاستعلاء من جانب الغرب والتخاذل من جانب الشرق ، وان الاستشراق لم يكن مجرد اسلوب للتعبير عن هذه التفرقة الجوهرية (فى نظر الغربيين على الاقل) ولكنه ساعد ايضا على تعميق الاحساس بها . . . ومن الطريف ان نجد ادوارد سعيد الذى يؤمن بهذا الرأى ويكرس دراسته عن « الاستشراق » لعرضه يذهب الى حد القول بان بريطانيا فى حكمها للهند كانت تصر على أن يكون سن التقاعد للاداريين البريطانيين هناك هو الخامسة والخمسين حتى لاتتاح للهنود وغيرهم من الشعوب المستضعفة المحكومة فرصة لأن يروا الجنس الأرقى والاسمى فى حالة شيخوخة وعجز وتراجع ومرض . لقد كانت تريد ان تشعر هذه الشعوب دائما بقوة الرجل الغربي وتمايزه حتى من الناحية الفيزيقية . . والظاهر انه حين يكتب عالم شرقي عن الاستشراق فانه لايستطيع ان يتخلص بسهولة من الاحساس بانه ينتمى الى ثقافة (مستضعفة) و (خاضعة) لسلطة ثقافة اعلى واوسع ، وهكذا كان ادوارد سعيد نفسه **الذى تلقى تعليمه فى الصبا فى بلدين عربيين** كانا فى ذلك الحين يخضعان للاستعمار البريطاني وهما فلسطين ومصر ، وكان تعليمه على اى حال تعليما غربيا ، ثم انتقل بعد ذلك الى امريكا لكى يغترف من الثقافة الامريكية الغربية ، ويعيش فى امريكا مواطنا امريكيا واستاذا فى جامعاتها ، ولكنه كان طيلة الوقت مدركا لاصوله الشرقية العربية ، بل والاسلامية على الرغم من انه لايدين

بالاسلام . ولم تكن حياته لذلك كله تخلو من الاحساس العميق بالالم ... وربما كان من اهم مايثير حفيظته على المستشرقين الامريكيين انه لم يجد من بينهم من استطاع ان يوحد بينه وبين العرب مثلما وجد منهم من استطاعوا التوحد مع الصهيونية . وقد ترك ذلك فى نفسه مرارة شديدة . والمقصود بالتوحد هنا التوحد السياسي والثقافي بحيث ينفعلون بما ينفعل به العرب سياسيا وثقافيا ، وليس مجرد التصدي للدفاع عن وجهة نظر العرب فى صراعهم ضد الصهيونية كما يفعل البعض بالفعل .

•••

والشائع فى معظم الاوساط العلمية ان الاستشراق لم يتقدم ويصبح أحد مجالات المعرفة الانسانية الهامة الا منذ القرن التاسع نتيجة لحركة الترجمة الهائلة التي بدات فى اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ، حيث نقلت كثير من النصوص من اللغات العربية والسنسكريتية والزندية وغيرها للغات الاوروبية ، ثم ما ترتب على الحملة الفرنسية على مصر من زيادة الاهتمام بمصر والشرق وقوة العلاقات بين الشرق والغرب وتأثير كتاب « وصف مصر Description de L'Egypte » ، لتوجيه حركة الاستشراق الى مجالات كثيرة غير المجال اللغوى وارساء فكرة أن العالم الشرقي والاسلامي يمكن ان يكون معملا للفكر الغربي والبحث العلمي الذى يقوم به العلماء والاوروبيون . ولكن الواقع ان الاستشراق بالمعنى الدقيق للكلمة بدا قبل ذلك بوقت طويل جدا ، وذلك حين صدر قرار مجمع فيينا الكنسي عام ١٣١٢ بانشاء عدد من (الكراسي) للغة العربية واليونانية والعبرية والسريانية فى جامعات باريس واكسفورد وبولونيا وآفنيون Avignon وسلامنكا .

ومنذ ذلك الحين اخذت حركة الاستشراق تنضج وتتسع بالتدريج وبخطى ثابتة بحيث شمل اهتمام المشترقين كل تلك المنطقة الجغرافية الواسعة التي تغطى نصف العالم ، وهو مالا يتوفر لاى مجال آخر من مجالات التخصص والمعرفة ، وان كان هذا نفسه ادى الى ظهور كثير جدا من الصعوبات امام الدارسين والمتخصصين . ولكن اتساع هذه المنطقة الجغرافية وتنوع الثقافات واللغات والسلالات والاديان التي تضمها يكشف عن عنصر الطموح الذى يميز الاستشراق وعمل المستشرقين .

ومن الغريب ان تجد ان القاعدة العامة التي سيطرت على تطور الاستشراق كدراسة اكاديمية كانت هي اتساع مجاله باستمرار واطراد ، وليست قدرته على الاختيار والانتقاء كما هو الحال بالنسبة لفروع المعرفة الاخرى التي تميل بمرور الزمن الى زيادة التخصص الدقيق . فبينما تحاول العلوم والدراسات الاخرى حين يتسع مجالها الى أن تفصل عنها الفروع التي تمت وتطورت واتسعت بحيث تؤلف علوما مستقلة لها كيانها وموضوعها المتمايز ، فان الاستشراق كان يميل الى أن يستوعب جميع أنواع المعارف والتخصصات ما دامت تعالج موضوعات ذات صلة بتلك المنطقة الجغرافية الواسعة بصرف النظر عما يقوم بينها من اختلاف وتباين . ولقد ظهر هذا الميل الى التوسع والاستيعاب منذ عصر النهضة بوجه خاص . مثال ذلك ان ارينيوس

Erpenius وجيوم بوستل Guillaume Postel كانا متخصصين أساسا في اللغات السامية ، ولو ان بوستل كان يفخر بانه كان يستطيع ان يسافر في المنطقة كلها حتى الصين دون ان يحتاج الى مترجم ، وظل المستشرقون حتى منتصف القرن الثامن عشر يركزون معظم اهتمامهم على دراسة اللغات السامية والكتب المقدسة والدراسات الاسلامية ثم بدأوا يوسعون من اهتماماتهم ويمدونها بحيث شملت الدراسات الصينية والاديان الهندية وغير ذلك على ما سبق ان ذكرنا ، وما ان جاء منتصف القرن التاسع عشر حتى كانت المادة العلمية والمعلومات والتخصصات التي تدخل في مجال الاستشراق تؤلف كنزا هائلا من المعرفة التي تفوق كل تصور .

وقد يمكن ان نستشهد على هذا الميل نحو الاتساع والاستيعاب بدليلين هامين :ـ

الاول هو الدراسة الموسوعية للاستشراق بين عامي ١٧٦٥ و ١٨٥٠ والتي قام بها ريموند شواب Raymond Schwap في كتابه « **النهضة الشرقية** La Renaissance Orientale والذى يبين فيه انه بالاضافة الى القدر الهائل من الدراسة والبحوث التي قام بها المستشرقون خلال هذه الفترة فان حمى الاهتمام بالشرق والانشغال بشئونه وحياته وثقافته لمست كل شاعر وكاتب مقال وفيلسوف ومفكر وفنان ، بحيث ظهرت بعض الملامح الشرقية في تفكير وكتابات جميع المتخصصين والهواة والمتحمسين لكل ما هو شرقي ، وبالذات لكل ما هو آسيوى ، وبالاخص للعناصر الغريبة والغامضة و (السرية) في تلك الثقافات . ويعتبر شواب من هذا التحمس أو تلك الحمى بانها تشبه الهوس بالدراسات الكلاسيكية اليونانية واللاتينية الذى ساد خلال ازدهار عصر النهضة في اوروبا . وقد عبر فيكتور هيجو Victor Hugo عام ١٨٢٩ عن ذلك بقوله انه في عصر لويس الرابع عشر كان الناس يتخصصون في الدراسات الهيلينية فاصبحوا الان مستشرقين . وعلى اى حال فان هؤلاء (المستشرقين) كانوا ينقسمون الى فئتين كبيرتين : **الاولى** فئة العلماء المتخصصين في الدراسات الاسلامية او الصينية او الاندو اوروبية ، او ما الى ذلك . **والثانية هي** فئة الكتاب والفلاسفة والشعراء والفنانين المتحمسين للشرق ، او الذين استخدموا ابداعهم الفني في تناول بعض نواحي الحياة الشرقية كما هو حال فيكتور هيجو نفسه في Les Orientales وجوته Goethe في ديوانه المشهور ، وان كانت هناك **فئة ثالثة** تجمع بين الاتجاهين ، ويدخل في هذه الفئة مستشرقون من امثال ريتشارد بيرتون وادوارد وليام لين وفردريش شليجل Friedrich Schlegel

والدليل الثاني على مدى اتساع الاستشراق وميله منذ مجمع فيينا الكنسي لاستيعاب كل ما يمت الى الشرق بصلة يتمثل في وقائع Chronicles القرن التاسع عشر من الدراسات الاستشراقية ذاتها . وربما كانت الوقائع التي تركها لنا جول موهل Jules Mohl بعنوان **سبعة وعشرون عاما من تاريخ الدراسات الشرقية** Vingt- Sept ans d'histoire des études orientales والتي تقع في مجلدين كبيرين يضمان كل ما له اهمية في ميدان الاستشراق بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٦٧ هو من اهم هذه الوقائع او التسجيلات التاريخية . ولقد كان موهل نفسه سكرتيرا للجمعية الاسيوية في باريس . وكانت باريس خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر (وبعده ايضا) هي (عاصمة) عالم الاستشراق والمستشرقين ، ان لم تكن عاصمة القرن التاسع

عشر ذاته حسب ما يقول وولتر بنجامين Walter Benjamin . ولقد أتاح ذلك لوهل الفرصة لان يتعرف على كل ما صدر خلال تلك الفترة (الاعوام السبعة والعشرون) عن آسيا بمختلف اللغات ، وبذلك فان كتابه يضم عددا ضخما من الاشارات للكتابات التي ظهرت بمختلف اللهجات الهندية واللغات العربية والعبرية والبهلوية والاشورية والبابلية والمنغولية والصينية والبورمية وغيرها ، كما شملت كل فروع المعرفة من انثربولوجية واركيولوجية وسوسيولوجية وتاريخية واقتصادية وادبية ودراسات وفولكلورية في جميع الثقافات الاسيوية وثقافات شمال افريقيا المعروفة في القديم او في العصر الحديث . . . ولم تكن (وقائع) موهل هي الوحيدة في هذا المجال ، بل ان هناك الكثير من امثالها وان كان ما اشتملت عليه أقل من حيث العدد ، ولكنها لا تقل من حيث التنوع واتساع الاهتمامات .

وتكشف لنا هذه **الوقائع** عن مدى اختلاف المستشرقين فيما بينهم في تحديد مفهوم (الشرق) وما يمكن ادراجه تحت هذه الدراسات الشرقية او حركة الاستشراق . ولم يكن هذا الاختلاف قاصرا على **البعد الجغرافي او المكاني للشرق** ، وانما امتد الى البعد التاريخي او الزماني ، بحيث دخل في هذه الدراسات كثير من القصص والخرافات التي كانت شائعة في الشرق ذاته . فحين حاول **ديربيلو** Barthelemy D'Herbelot في موسوعته المعروفة باسم **المكتبة الشرقية** **Bibliotheque orientale** « التي نشرت عام ١٦٩٧ بعد موته والتي كتب مقدمتها انطوان جالان Antoine Galland فانه احاط فيها بكثير جدا من الكتابات العربية والتركية والفارسية التي تناولت التاريخ واللاهوت والجغرافيا والعلوم والفنون في الشرق في صورها الحقيقية والمتخيلة والجغرافية على ما يقول ادوارد سعيد . وجالان نفسه يقول في ذلك ان « المكتبة الشرقية » تغطي فترة زمنية لا تبدأ فقط بخلق آدم وتمتد حتى العصر الذى نعيش فيه ؛ أو بحسب تعبيره « temps où nous sommes'' ، بل ان ديربيلو رجع في الماضي السحيق الى ابعد من ذلك « plus haut » وتوغل في التاريخ الخرافي والازمنة الاسطورية والمراحل « قبل الادمية » . فجاءت « المكتبة » تاريخا للعالم والخلق والطوفان وتدمير بابل وما اليها ، مع فارق واحد هام يميزها عن بقية الكتب التي عالجت مثل هذا الموضوع الواسع المتشعب ، ونعني به ان ديربيلو اعتمد فقط على مصادر شرقية بحتة ، كما انه قسم التاريخ الى (نوعين) : التاريخ المقدس والتاريخ المدنس ، وادخل في التاريخ المقدس اليهود والمسيحيين بينما أدخل المسلمين في التاريخ المدنس ، كما انه ميز بين حقبتين اساسيتين هما ما قبل الطوفان وما بعده . وفيما عدا ذلك ، فان ديربيلو اعطى للعالم الاسلامي او (الامبراطورية الاسلامية) جانبا كبيرا من اهتمامه واستعرض ما كتب عن هذا العالم الواسع الذى يمتد من اقصى الشرق الى « اعمدة هرقل » (يقصد جبل طارق) وبكل ما في هذا العالم من عادات وتقاليد وطقوس واسر حاكمة ومدن وقصور وانهار ونباتات وباحثين وغير ذلك . ولكن كتابته لم تكن تخلو من نغمة التحامل على « (محمد) الذى الحق بالمسيحية كل تلك الاضرار وكل هذا الاذى » . وتعتبر « المكتبة الشرقية » اضخم عمل علمي ظهر في عالم الاستشراق حتى ذلك الحين من حيث الشمول والاحاطة ، فضلا عن انه لم يكن مجرد (تجميع) للمادة العلمية المتوفرة حينذاك ، وانما كان عرضا طيبا لهذه المادة ، كما أن ديربيلو كتب هذه

الكتبة بطريقة واسلوب يعطيان القارىء فكرة واضحة عن الجهود الفائقة التي تبذل في مجال الاستشراق ، وان هذه الجهود ليست جهودا ضائعة .

• • •

ولقد كان الشرق يعتبر ــ باستثناء الاسلام ــ مجرد امتداد للغرب وتابعا له ومسرحا لسيطرته وسطوته وجزءا من تاريخه . وظل هذا الفهم قائما حتى القرن التاسع عشر . وهذا ينطبق على التجربة البريطانية في الهند ، والتجربة البرتغالية في جزر الهند الشرقية والصين واليابان ، والتجربة الفرنسية والتجربة الايطالية في مناطق كثيرة من الشرق ، وان كان هذا لم يمنع من قيام اضطرابات ضد هذه السلطة او التسلط في تلك المناطق من حين لآخر ، مثلما حدث عام ١٦٢٨ ــ ١٦٢٩ حين قامت جماعة من المسيحيين اليابانيين بطرد البرتغاليين من المنطقة . ولكن فيما عدا ذلك كان الشرق الاسلامي والعربي هو المنطقة الوحيدة التي كانت تمثل تحديا سافرا لاوروبا ، سواء في المجالات السياسية او الثقافية ، بل وايضا في فترة من الفترات في المجال الاقتصادي . ولذا كان الاستشراق يتميز خلال مرحلة طويلة من حياته بهذا الموقف المعادي للاسلام والمناوىء للثقافة الاسلامية . وهذه مشكلة من أهم المشاكل التي اولاها ادوارد سعيد جانبا كبيرا من عنايته في كتابه ، بل انها تكاد تكون هي النقطة المحورية التي يدور حولها الكتاب كله .

لقد كان شعور اوروبا بالتحدي الاسلامي قويا ومثيرا للرهبة والخوف ، فلقد كان الاسلام قريبا جدا من الناحية الجغرافية ، كما انه كان يستمد كثيرا من معالمه الثقافية من التقاليد اليهودية والهيلينية ، فضلا عن المسيحية التي طوعها بشكل يدعو الى الاعجاب ، وذلك فضلا عما حققه من نجاح في المجال العسكري او الحربي . ولقد فتح الاسلام مناطق كثيرة كانت تعتبر معاقل حصينة للمسيحية ، بل ان (ارض التوراة والكتاب المقدس) ذاتها اصبحت من اهم مراكز الاسلام ، وقد ظل الاسلام ، سواء في صورته العربية او العثمانية أو الشمال افريقية او الاسبانية يهدد اوروبا المسيحية حتى عام ١٥٧١ ، وقد افلح خلال ذلك ان يزيح سلطان روما نفسها ويزلزله ، وهو امر لا يمكن لاى اوروبي في الماضي او الحاضر ان ينساه او يتناساه . ولذا فليس من المستغرب بحال ان تجد ان اول عمل علمي كبير في تاريخ الاستشراق بعد « مكتبة » ديربلو كان كتاب سايمون أوكلي Simon Oakley عن تاريخ الراسنة History of the Saracens الذي بين فيه كثيرا من الامور التي يجهلها الاوروبيون عن الاسلام وحضارته ؛ وقد تكلم في ذلك بصراحة وعمق أثارتا كثيرا من الالم في نفوسهم . وقد صدر الجزء الاول من كتاب اوكلي عام ١٧٠٨ .

الا ان الاهتمام بالدراسات الشرقية لم يأخذ شكل (المشروعات البحثية) المدروسة بدقة الا بعد الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ كما ذكرنا . وان كان سبق هذه الحملة مشروعان هامان كانا يهدفان الى (غزو) الشرق والكشف عن اسراره الحقيقية .

وقد قام بالمشروع الاول آنكتيل ديبرون Abraham-Hyacinthe Anquetil Duperron (١٧٣١ ــ ١٨٠٥) وهو مفكر نظرى غريب الاطوار ، استطاع بشكل من الاشكال ان يوفق بين الكاثوليكية والجانزية والبرهمانية ، وقام بكثير من الرحلات والاسفار لكي يبرهن على وجود « شعب

الله المختار » بين الجماعات المختلفة عن طريق تتبع اصول اليهود ، ولكنه بدلا من ذلك كرس وقته لدراسة نصوص الأفستا Avesta وقام بترجمتها عام ١٧٥٩ ، ثم ترجم اليوبانيشاد Upanishads عام ١٨٧٦ وبذلك استطاع على ما يقول شواب Schwab ان يحفر قناة توصل بين العبقرية الانسانية في نصفي الكرة الارضية . ويعتبر هذا الجهد من اول الجهود التى كشفت لاوروبا عن عظمة الشرق متمثلة في نصوصه ولغاته وحضاراته .

ثم جاءت المحاولة الثانية على ايدى وليام جونز William Jones الذى غادر انجلترا الى الهند عام ١٧٨٣ وكان قد درس اللغات العربية والعبرية والفارسية ، ولكنه الى جانب ذلك ـ وربما كان هو الأهم ـ كان شاعرا وفقيها في القانون ومتخصصا في الدراسات الكلاسيكية . وقد عمل جونز مع شركة الهند الشرقية ولكنه على عكس ما فعله آنكتيل ويبرون كان يعمل على (ترويض) الشرق لكي يحوله الى (مقاطعة) او مجال للمعرفة الاوروبية . ولقد كتب في السابع عشر من اغسطس عام ١٧٨٧ الى لورد آلثورب Lord Althorp يقول : « ان املي هو ان اعرف الهند كما لم يعرفها اى اوروبي آخر » . وهو في ذلك كان أسبق على بالفور الذى ادعى عام ١٩١٠ انه يعرف الشرق أفضل من اى انسان آخر .

وكثير من المستشرقين الانجليز الاوائل في الهند كانوا مثل وليام جونز من رجال القانون ، ولكن البعض كانوا ، وهذا امر طريف ، من رجال الطب ممن وقفوا انفسهم على خير الانسانية . ومعظمهم على اية حال كانوا يهدفون الى دراسة علوم آسيا وفنونها ، بقصد نقلها الى اوروبا من ناحية ، والعمل على تطويرها هي ذاتها من الناحية الاخرى .

ولكن الملاحظ بوجه عام ان (مشروعات) الدراسات الشرقية قبل حملة نابليون لم تكن يخطط لها تخطيطا كافيا ودقيقا بشكل يضمن لها النجاح ، ولم يكن (المستشرقون) يعرفون مقدما ماذا كانوا يريدون ، وانما كانوا يكتشفون مجالات بحثهم بعد وصولهم بالفعل الى المواطن او المواقع التي اختاروها لتكون موضوعا لدراساتهم ، وذلك على عكس خطة نابليون التى كانت منذ البداية ـ وقبل ان تتحرك الحملة فعلا ـ تهدف الى احتواء مصر تماما . وقد وضعت الخطة على على هذا الاساس ، وهى خطة كان لها جانبها العسكرى والاستعمارى ، ولكن كان لها جانبها العلمى والثقافى ، وكانت مصر تعتبر الحلقة الاولى فقط ضمن سلسلة طويلة لاحتواء الشرق . ولقد تمخضت الحملة من الناحية العلمية ، وبخاصة من ناحية الاستشراق عن انشاء « المعهد المصرى Institut d'Egypte » بكل ما فيه من علماء ومفكرين في مختلف فروع التخصص ، وهم الذين توفروا على دراسة مصر من مختلف الجوانب ، ومن تأليف كتاب « وصف مصر » الشهير الذى يقع في ثلاثة وعشرين جزءا ضخما . ومن الطريف ان نذكر ان مساحة الصفحة في الكتاب الاصلى كانت مترا مربعا كما لو كانت ضخامة المشروع تجد لها تعبيرا رمزيا في حجم الكتاب ومساحة صفحاته . . وكان الكتاب ـ كما يذكر ادوارد سعيد ـ يهدف الى (صنع) مصر عن طريق احياء

تراثها القديم ونقلها هي ذاتها من حاضرها المتخلف الى حاضر اوروبا المتقدم الراقي ، والجمع بين هذا التراث القديم والحضارة الحديثة . وكثيرون لا يعرفون ان نابليون تأثر في وضع خطته بكتاب الكونت دوفولني Comte de Volney « رحلة في مصر وسوريا Voyage en Syrie et en Egypte الذي ظهر في مجلدين عام ١٧٨٧ . وقد تعرض فولني في الجزء الثاني للاسلام ، ولكن كتابته عن الاسلام من حيث هو دين ومن حيث هو نسق من النظم السياسية التي كانت تتسم بالعدوان والتحامل ، كما انه كان بوجه عام يعتبر الشرق الادنى مكانا يمكن ان تتحقق فيه اطماع فرنسا الاستعمارية . ومع ان الحملة الفرنسية على مصر فشلت عسكريا فان النتائج العلمية التي حققتها كانت رائعة وبخاصة فيما يتعلق بتوجيه الدراسات الشرقية وتنمية حركة الاستشراق ، فقد ساعدت على ان تكتسب الكتابات بعد ذلك طابعا اكثر واقعية واقرب الى الحقيقة ، وان تعتمد في المحل الاول على تسجيل الاحداث والظواهر والوقائع تسجيلا دقيقا ، الى جانب تحليلها كما فعل علماء « المعهد وهم يجمعون المادة العلمية التي استخدموها في تأليف كتاب « وصف مصر ». ولا بد من أن تعتبر النتائج العلميـة لهـذه الحملة البداية الحقيقية لاهتمامات عدد من الكتاب بالشرق من امثال شاتو بريان ولامارتين Lamartine وفلوبير ، بل وايضا ادوارد وليام لين وريتشارد بيرتون .

وعلى اي حال فان اقدام نابليون على تنفيذ خطته وتأثره في ذلك بقراءاته في كتابات المستشرقين ثم ما ترتب على تلك الخطة من تقدم الاستشراق ، ثم استخدام المعلومات الجديدة الكثيرة في حكم الشعوب الشرقية هو دليل آخر على ما سبق ان ذكرناه عن العلاقة بين كتابة الغربيين وصمت الشرقيين ــ حسب تعبير ادوارد سعيد ــ نتيجة لقوة الغرب الثقافية ، وعلامة ايضا على هذه القوة . وفي هذا ينحصر الدور الذي لعبه الاستشراق في التمكين للاستعمار من البلاد الشرقية ، اذ اصبح الاداريون والمستعمرون يعتقدون انهم يفهمون الشرق ما دام المستشرقون قد فهموه ، وقدموا لهم نتائج هذا الفهم .

ولقد ازداد الدور الذي يلعبه المستشرقون في القرنين التاسع عشر والعشرين نتيجة لازدياد قوة العلاقة بين اوروبا والشرق ، اذ اصبح الشرق مجالا للتنافس السياسي والاقتصادي الغربي ، حيث كان الاوربيون يبحثون عن اسواق جديدة ومستعمرات جديدة وموارد اقتصادية جديدة ايضا . وكان المستشرقون اثناء هذا كله يؤمنون بان « الشرق شرق » وانه لا يتغير . وهذا اساس قوي لظهور النزعة العنصرية لدى عدد كبير منهم ، وان لم يكونوا جميعا قد عبروا عن ذلك بنفس الصراحة التي نجدها عند رينان . فالنزعة العنصرية نجدها عند الكثيرين كما هو الحال مثلا لدى شليجل ، الذي ينسب كثيرا جدا من الاوصاف والنعوت غير الكريمة للساميين وغيرهم من الشرقيين « المنحطين » ، وقد شاعت هذه الاراء بسرعة في الثقافة الاوروبية . وكانت هذه التفرقة تعتمد اساسا على المقارنات الفيلولوجية (دراسة اللغويات المقارنة) ، اذ كان يبدو في

كتابات هؤلاء العلماء انهم يؤمنون بوجود صلة قوية بين السلالة واللغة ، وهى صلة او رابطة لا فكاك منها .

• • •

وتضم «شجرة النسب» الرسمية للاستشراق والمستشرقين علماء من امثال جوبينو Gobineau ورينان وهمبولت Humboldt وشتاينتال وبورنوف Burnouf وريموسات Remusat وبالمر Palmer وفيل Weil ودوزى Dozy وغيرهم من العلماء الافذاذ فى القرن التاسع عشر ، كما انها تشتمل بالضرورة على عدد كبير من الجمعيات المتخصصة مثل الجمعية الاسيوية Société Asiatique التى اسست عام ١٨٢٢ والجمعية الاسيوية الملكية Royal Asiatic Society التى اسست عام ١٨٢٣ والجمعية الشرقية الامريكية Aemrican Oriental Societx التى اسست عام ١٨٤٢ وغيرها من الجمعيات العلمية. الا ان هناك ميلا لدى البعض لان يسقطوا من هذه الشجرة الاسهامات الهامة التى تضمها الكتابات الادبية الخيالية وكتب الرحلات والتى تبرز بوضوح وفى قوة وصراحة التمييزات والتقسيمات التى اقامها المستشرقون بين مختلف القطاعات الجغرافية والزمنية والسلالية فى الشرق . ومن الخطأ اغفال مثل هذه الاعمال العظيمة على الاقل بالنسبة للعالم الاسلامى لانها توضح نظرة الغربيين للاسلام والثقافة الاسلامية ورايهم فيهما وتقويمهم لهما ، وشكوكهم وتحاملهم عليهما . وهذه الاعمال يدخل فيها كتابات جوتة وهيجو ولامارتين وشاتوبريان وكنجليك Kinglake ونيرفال وفلوبير ولين وبيرتون وسكوت Scott وبايرون Byron وفينى Vigny ودزرائيلى وجورج اليوت George Eliot وجوتييه Gautier ثم تلاهم فى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين كتاب من امثال داوتى Doughty وباريس Barres ولوتى Loti وفورستر Forester

ولقد حاول الكتاب المتأخرون ان يتخلصوا من الخيالات والاوهام التى كانت تسيطر على الكتاب الاوائل حين يكتبون عن الشرق ، كما لم يعودوا يختلقون احداثا لا وجود لها فى الواقع على ما كان يفعل فلوبير فى وصفة لسلوك الشاعق مصر والحياة الجنسية الاباحية التى زعم ان المصريين يحيونها بحيث كان الرجل يجامع المراة التى تثير اعجابه فى الشارع وامام الناس وهم يشاهدون ويضحكون ، وكانت النساء فى زعمه يتصلن جنسيا بالدراويش للحصول على البركة بحيث مات احد هؤلاء الدراويش من الانهاك . ولكن ذلك لا يعنى ان هؤلاء الكتاب المتاخرين كانوا اكثر موضوعية على الرغم من كل ما يزعمون حول ذلك . فقد كان وراءهم تراث طويل من الكتابات المغرضة والمتحاملة والرومانتيكية، فضلا عن دفاعهم عن مصالح الدول التى كانوا ينتمون اليها والتى كانت تستعمر الشرق . وبعد ان نالت كل الدول الشرقية استقلالها فى الخمسينات من هذا القرن ، وانحسر الاستعمار الاوروبى ظهرت قوى استعمارية حديثة تتمثل فى الولايات المتحدة الامريكية من ناحية والاتحاد السوفيالى من الناحية الاخرى ، واصبح الاستشراق يبحث له

من دور يمكن ان يلعبه في دول العالم الثالث المستقلة والتي تقف من الغرب عموما موقف التحدي، ولم يعد امام المستشرقين الا ان يسلكوا احد طريقين اثنين : اما ان يستمروا في بحوثهم ودراساتهم مثلما كانوا يفعلون من قبل كما لو لم يكن شيء قد حدث ، او ان يعدلوا اساليبهم القديمة بحيث تتلاءم مع الاوضاع الجديدة ، وكلا الموقفين صعب ، خاصة وان الكثيرين من المستشرقين لا يكادون يعترفون بان الشرق قد تغير او يمكن ان يتغير . ويبقى بعد ذلك كله طريق ثالث وهو ان يسقط علماء الغرب الشرق من اعتبارهم ويطوى سجل الاستشراق للابد . وقليل من العلماء هم الذين يرون في هذا الطريق الحل الوحيد .

ولقد تعرض كاتب عربي آخر لهذه المشكلة وهو انور عبد الملك في مقال رائع له بعنوان « الاستشراق في ازمة Orientalism in Crisis » الذي نشره في مجلة ديوجين Diogenes في شتاء عام ١٩٦٣ ، ويرى انور عبد الملك الذي كان يشغل منصب الاستاذية في احدى الجامعات المصرية قبل ان ينتقل ليعيش في باريس ان حركات التحرير الوطنية التي ظهرت في البلاد الشرقية التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار هدمت الى حد كبير تصورات المستشرقين عن سلبية الشرقيين المستضعفين واستسلامهم وتواكلهم وذلك بالاضافة الى ادراك العلماء المتخصصين انفسهم ان الهوة اصبحت واسعة وسحيقة بين اهتمامات المستشرقين والاوضاع القائمة الآن بالفعل وكذلك بين اساليب المستشرقين ومناهجهم ومفهوماتهم تلك التي يتبعها الآن المتخصصون في العلوم الاجتماعية والانثربولوجية والسلوكية . ولقد كان المستشرقون، على ما يقول انور عبد الملك ـ ابتداء من رينان الى جولد تسيهر الى ماكدونالد Macdonald الى فون جرونباوم Von Grunbaum الى جب وبرنارد لويس Bernard Lewis يعتبرون الاسلام « مركبا ثقافيا » يمكن دراسته بعيدا عن اقتصاديات الشعوب الاسلامية وحياتها الاجتماعية ونظمها السياسية ، الى ان جاء علماء الاجتماع والانثربولوجيا الذين اهتموا بالاسلام واتبعوا في دراسته مناهج جديدة تماما تعالج الاسلام كظاهرة دينية واجتماعية شديدة التعقيد ، ووجدوا انه من الخطأ والخطر ان تترك دراسة الاسلام للمستشرقين وحدهم . والطريف ان جب نفسه تبنى هذه الفكرة وتحمس لها ابتداء من الستينات وتوقف عددا من مقالاته ومحاضراته للدفاع عنها .

ولقد كان المستشرق الحديث يعتبر في نظر الكثيرين بطلا كرس نفسه وجهده وحياته لانقاذ الشرق من الظلام والغموض والاغتراب والغربة التي كانت تخيم عليه ويعيش فيها دون ان يعرف العالم الخارجي عنه الا القليل ، ولذا كان يهدف من ابحاثه ودراساته الى اعادة تركيب الشرق وعاداته وتفكيره وتقاليده المفقودة مثلما اعاد شمبليون تركيب اللغة الهيروغليفية من حجر رشيد . وكانت وسيلته الاساسية في ذلك هي الاتجاه الى دراسة الاساليب اللغوية ، او على الاصح النحو ثم الترجمة وفك رموز تلك اللغات السائدة في الشرق الكلاسيكي القديم ، وكذلك قيم العلوم التقليدية التي كان يستعين بها في عمله مثل الفيلولوجيا والتاريخ . ولكن لم يلبث كل شيء ان تغير بمرور الزمن .. لقد تغير الشرق مثلما تغيرت العلوم التي يستعين بها المستشرقون في

محاولته فهم الشرق . . لم يعد للشرق الكلاسيكي التقليدي الذى كان المستشرقون يغرمون بدراسته وجود ، لانه بدأ يساير العصر الحاضر ويستجيب للتغييرات الكثيرة الطارئة ، كما دخل كثير من التعديل والتطور على أدوات البحث ومناهجه لكي تلائم الثقافة المعاصرة . وعلى العموم فان انتقال الشرق الى العصر الحديث اضطر المستشرقين الى اعادة النظر فى الاساليب التي يتبعها ، وان يرسي مناهجه ووسائل بحثه على أسس قوية تسمح لها بالاستمرار وبحيث يمكن للاجيال التالية ان تستخدمها وتعتمد عليها لاحراز مزيد من التقدم في جمع المعلومات المؤكدة عن حياة الشرق وثقافاته . اى ان تغير الظروف اضطر المستشرقين الى تغيير نظرتهم الى انفسهم والى مجال دراستهم والى اساليب البحث التي يستخدمونها ، وهذا ادى بدوره الى ان يتخذ الاستشراق طابعا علميا واكثر موضوعية من الدراسات التي كان يقوم بها المستشرقون الرواد ، كما ادى الى احداث تغييرات جذرية فى الدور الذى يقومون به فى الحياة العامة .

ولقد سبق ان اشرنا فى اكثر من موضع الى رأى ادوارد سعيد وانور عبد الملك فى الجهود التي قام بها المستشرقون منذ القرن التاسع عشر ـ بوجه خاص ـ فى مد نفوذ الغرب الى البلاد الشرقية التي تخصصوا فى دراستها وان هذه الجهود استمرت حتى الوقت الحالى . فبانتهاء الحرب العالمية الاولى كانت اوروبا قد احتلت اكثر من ٨٠٪ من الكرة الارضية ، وعلى ذلك فحين نقول ان الاستشراق الحديث كان مظهرا هاما من مظاهر الاستعمار ، وتكوين الامبراطوريات فان هذا القول لن يكون مغايرا للحقيقة ، وسوف يجد من الوقائع والاحداث ما يؤيده . فموقف المستشرق الحديث يختلف اختلافا جذريا عن موقف المستشرقين الرواد الاوائل من امثال ديربيلو D'Herbelot الذين كانوا يعتبرون الاستشراق نوعا من النشاط الذهني والمجهود العلمي النظرى فى المحل الاول ، وذلك بعكس ما هو عليه الوضع بين المستشرقين المحدثين الذين يؤمنون ان هذا المجهود لا بد من ان تكون له اهداف ابعد من الحدود العلمية الخالصة بحيث يتعدى الناحية النظرية الى المجالات التطبيقية التي تتمثل بوجه خاص فى الافادة من المعلومات الوفيرة فى مد نفوذ الغرب على المجتمعات الشرقية . فاعادة تركيب لغة من اللغات القديمة المبنية مثلا يعني فى آخر الامر اعادة بناء جزء ميت أو مهمل من الشرق وبث الروح فيه ، وبذلك يمكن القول ان (العلم) الذى يساعد على تحقيق هذه العلمية الاحيائية يمكنه ، بل ويجب عليه ، ان يمهد الطريق لمهام اخرى تضطلع بها الجيوش والحكومات الغربية فى الشرق . وكما يقول ادوارد سعيد فى ذلك : ان هذه مسألة يجب الا تغيب ابدا عن اذهاننا نحن الشرقيين ونحن ندرس حركة الاستشراق وحياة المستشرقين من أجل التعرف على الجهود التي قاموا بها وعلى طبيعة اسهامهم في دراسة الشرق ونوع اهتماماتهم والدوافع التي تكمن وراء ذلك كله .

وفى اوائل القرن العشرين بوجه خاص حاول الاستشراق (تسليم) الشرق للغرب واتبع فى ذلك وسيلتين هامتين الاولى هي الاستفادة الى اكبر حد ممكن من « امكانات » المعرفة الحديثة

ووسائل تقديمها ونشرها بين الناس ، ويستوي في ذلك المدارس بمختلف مراحلها والجامعات ؛ وانشاء الجمعيات المتخصصة والمؤسسات التي تهتم بالبحوث والاكتشافات الجغرافية او الهيئات التي تشجع على الرحلات والارتياد او دور الطباعة والنشر ، بهدف تسهيل نشر المعلومات عن البلاد الشرقية من وجهة نظر المستشرقين انفسهم . وليس المهم في ذلك هو نشر معلومات بالذات وافكار محددة عن الشرق بين الغربيين ، وانما المهم هو ان الشرقيين انفسهم اصبحوا ينظرون الى انفسهم بنفس المنظار الذي ينظر به الغربيون اليهم ، وتقبلوا الى حد كبير الى الاقل رأي الغرب فيهم ، وان هناك كثيرون ينكرون على الغرب تلك الرؤية على ما سبق ان ذكرنا .

والوسيلة الثانية هي اضطلاع المستشرق الحديث بمهام اخرى اضافية لم يكن المستشرقون الاوائل يدخلونها في اعتبارهم ، او على الاقل لم يكونوا يعطونها كل ذلك الاهتمام ، وهي مهام تخرج من نطاق (العلم) النظري الخالص وتحقق اهدافا تتعلق بالحكومات الاوروبية ورغبتها في السيطرة ومد النفوذ الى ربوع الشرق .. فلقد ظل المستشرقون لاجيال طويلة يدرسون الشرق عن طريق دراسة النصوص ومحاولة شرحها وترجمتها مع دراسة حضارات الشرق واديانه وثقافاته وانماط تفكيره بل و (عقليات) اهله ، على انها موضوعات اكاديمية تستحق الدراسة والقاء الضوء عليها من وجهة نظر خارجية ـ اي ان المستشرقين كانوا يعتبرون انفسهم متخصصين في مجال معين من مجالات المعرفة وان عملهم ينحصر في دراسة الشرق ومحاولة تفسيره وتقريبه لمواطنيهم في الغرب ، وكان معنى ذلك ان المستشرقين ظلوا ـ برغم جهودهم هم للتغلغل في حياة الشرق و (عقله) ـ اغرابا عن الشرق ، كما ظل الشرق نفسه بعيدا عن افهام الغربيين . وقد انعكس هذا (البعد) في كثير من الاوصاف والنعوت والتشبيهات التي كان المستشرقون انفسهم يطلقونها على الشرق والشرقيين ، والتي تصفهم بالغموض احيانا واللامنطقية احيانا اخرى وما الى ذلك .. ولكن هذا البعد (الثقافي) بدأ يضيق بالتدريج نتيجة لانتشار المصالح الغربية السياسية والتجارية التي كانت تتطلب فهم (واقع) الشرق والشرقيين ، وكان المستشرقون ايضا ـ او بعضهم على الاقل ـ هم اداة الحكومات في ذلك . فقد لعب هؤلاء المستشرقون دور (العميل) لحكوماتهم وحاولوا تفسير الشرق لتلك الحكومات بطريقة تشبع رغبات الحكومات وانها تتفق مع اغراضها ... لقد اخذ المستشرقون والرحالة الاوروبيون يعتبرون انفسهم ممثلين للغرب الذي ينتمون اليه . ولعل خير مثال لذلك هو العالم البريطاني ادوارد هنري بالمر Edward Henry Palmer الذي ارسل الى سينا عام ١٨٨٢ لكي يخفف من حدة المشاعر ضد البريطانيين ايام الثورة العرابية ، وقد قتل بالمر اثناء ذلك . وقد يعتبر بالمر مثالا لفشل المستشرق في تحقيق اهداف حكومته ، ولكن هناك حالات كثيرة جدا اضطلع فيها المستشرقون بمهام واعمال مماثلة وادوا خدمات (جليلة) لاوطانهم عن طريق ادائهم لهذه الاعمال . ووضع بالمر في ذلك يختلف تماما عن حالة مستشرق بريطاني آخر هو هوجارث D. G. Hogarth الذي ضمن رحلاته واكتشافاته في شبه الجزيرة العربية كتابا اطلق عليه عنوانا له مغزاه ومدلوله وهو The Penetration of Arabia وقد اصدره عام

١٩٠٤ . وقد عين هوجارث بعد ذلك رئيسا لما يعرف باسم « المكتب العربي Arab Bureau » في القاهرة أثناء الحرب العالمية الاولى ، وأدى لحكومته من خلال هذا المكتب ومن خلال معرفته بالشرق كثيرا من الخدمات. وليس من قبيل المصادفة أن يحتل عدد من الشخصيات البريطانية — نساء ورجالا — ممن اهتموا بالشرق مراكز بالغة الخطورة اما في بلادهم او في بلاد الشرق نفسه ، واستطاعوا منها ان يفيدوا أوطانهم بشكل رسمي أو غير رسمي ، معتمدين في ذلك على صداقتهم للشرق . ويكفي ان نذكر هنا أسماء جرترود بل Gertrude Bel ولورانس T. E. Lawrence وفيلبي St. John Philby ولكن القائمة طويلة وتضم أسماء كثيرين من الكتاب والرحالة والمكتشفين ممن لعبوا دورا في رسم سياسة الغرب تجاه الشرق . ولكن هؤلاء جميعا لم يكونوا (علماء) بالمعنى الدقيق للكلمة ، وان كانوا استفادوا من خبرة العلماء وعلمهم وجهودهم . ولم تكن مهمتهم التهوين من بحوث العلماء او التشكيك فيها او القضاء عليها وانما على العكس من ذلك كانوا يفيدون منها ويستغلونها في تحقيق الاهداف التي رسمتها لهم حكوماتهم ، وكان لابد لهم لتحقيق ذلك من ان يفسروا نتائج ابحاث العلماء تفسيرا يتلاءم مع تلك الاهداف .

والدور الذي لعبه الرحالة والعملاء وصناع السياسة في هذا المجال يكشف بطريقة واضحة عن نوع التحول الذي طرا على الاستشراق ، وكيف انه لم يعد مجرد تخصص علمي اكاديمي بحت ، وكيف ان المستشرقين انفسهم — او عددا كبيرا منهم على الاقل — قد تحولوا من الموقف الاكاديمي الى ان يصبحوا أدوات في أيدي حكوماتهم . وكان لا بد لهذا التحول في الموقف من ان ينعكس على شخصية المستشرق ذاته ونظرته الى نفسه فلم يعد المستشرق في الاغلب يعتبر نفسه عالما ينتمي الى طائفة او فئة من العلماء لهم قيمهم وطقوسهم العلمية وتقاليدهم واخلاقياتهم ومبادؤهم التي تتحكم في عملهم ، وتوجه هذا العمل ، كما ترسم لهم سلوكهم داخل نطاق هذه الطائفة او الفئة ، وانما اصبح يعتبر نفسه ممثلا لثقافته الغربية ضد ثقافة الشرق ، وبذلك انطوت شخصيته وعمله على نوع من الازدواجية التي تتمثل في نظرته الى النشاط الذي يقوم به على انه تعبير رمزي عن الشعور او الاحساس بالذات الغربية والمعرفة الغربية والعلم الغربي والسيطرة الغربية ، التي تمسك بتلابيب الشرق وتحاول التغلغل الى اعماقه بقصد اخضاعه واذلاله .

ومن الصعب على كثير من الناس ان يتصوروا مدى اتساع نطاق اهتمامات المستشرقين الاوائل او نوع الدراسات التي كانوا يقومون بها ، وكيف ان هذه الدراسات كانت تتشعب بهم بحيث تتطرق الى جميع جوانب الحياة الاجتماعية والفكرية والعقائدية في منطقة واسعة جدا من الارض تضم عددا كبيرا من الثقافات الفرعية التي تندرج تحت ثقافة عامة واحدة .
فلم يعد يوجد الان من يزعم انه متخصص في الدراسات الاسلامية في عمومها واطلاقها كما كان الحال بالنسبة لهؤلاء المستشرقين الاوائل ، وان كنا نجد علماء في الانثربولوجيا او علم الاجتماع

او التاريخ يتخصصون فى جانب معين من الثقافة الاسلامية في مجتمع اسلامى محدد ، او فى نظام اجتماعى معين ايضا لدى الطوائف الهندية اوحتى فى طائفة هندية واحدة ، او فى فترة تاريخية محددة بالذات وهكذا ، وان كان هذا التخصص الدقيق لا يمنع مع ذلك من ان يحيط ذلك الباحث المتخصص بقدر الامكان بجوانب اخرى من الثقافة العامة او المجتمع القومى الكبير او حتى من المنطقة الثقافية كلها التى يدرس فيها ذلك الموضوع المحدد الذى يكرس له معظم وقته وجهده . ولم يعد هؤلاء الانثربولوجيون او السوسيولوجيون او المؤرخون يعتبرون انفسهم (مستشرقين) بالمعنى التقليدى القديم ، كما لم يعودوا يطلقون احكاما عامة فضفاضة يزعمون انها تلخص خصائص ومقومات الديانات الهندية مثلا او الشخصية الاسلامية بعامة ، وانما هم يهتمون بدراسة (مناطق) او نظم محددة دراسة تفصيلية مركزة بحيث تأتى احكامهم موضوعية وبعيدة بقدر الامكان عن الانطباعات الحدسية التى كانت تزخر بها كتابات المستشرقين .

ولا يمنع هذا الميل الى التخصص الدقيق من ان الكثيرين من هؤلاء العلماء لا يزالون يلعبون دورا اساسيا فى تشكيل سياسة حكوماتهم ازاء الشرق . وقد تأخذ نحن الشرقيين ذلك على هؤلاء العلماء والمتخصصين خاصة وان هذا السلوك من جانبهم يتعارض فى الاغلب مع مصالحنا واهدافنا ، بل وقد تعتبر عملية (تسليم) الشرق للغرب عملية تتعارض مع القيم العلمية الخاصة . وكثير من هؤلاء العلماء كانوا بالفعل ، ولا يزالون ، عملاء لمخابرات بلادهم فى الشرق . ولكنهم من وجهة نظرهم هم ، ومن وجهة نظر حكوماتهم ، مواطنون يؤدون لاوطانهم خدمات جليلة . وهذه المآخذ تتردد فى مواضع كثيرة من كتاب ادوارد سعيد ومقال أنور عبد الملك وكتابات الكثيرين غيرهم من الكتاب الشرقيين الذين يتعرضون لتقويم (التجربة الاستشراقية) من وجهة نظرهم كشرقيين . وكثيرا ما يوصف الاستشراق فى هذه الكتابات بانه ضرب من (المعرفة الاستعمارية) او انه (علم استعمارى) ، تماما مثلما توصف الانثربولوجيا فى بعض الكتابات العربية بهذه الصفة ذاتها نظرا لان بعض علماء الانثربولوجيا من البريطانيين وضعوا خبراتهم وعلمهم فى خدمة حكوماتهم ضد المجتمعات والشعوب التى كانوا قد درسوها وتخصصوا فيها .. ولكن للمسألة وجها آخر يخلق بنا ان نوليه ما يستحقه من عناية واهتمام ، وهو ان هذا التصرف من جانب هؤلاء المستشرقين يدل بشكل او بآخر على مدى تقدير الحكومات الغربية لعلم العلماء واستعانتها بهم والافادة من خبراتهم فيما يعود على اوطانهم بالخير . وهذا موقف خليق بحكوماتنا فى الشرق ان تتدبره وان تأخذه فى الاعتبار بحيث تعيد النظر فى مسألة العلاقة بين رجال الحكم ورجال العلم وكيفية استفادة الدولة من علمائها ومن خبراتهم فى رسم سياساتها .

ويثير هذا تساؤلا آخر هو : ماذا فعل العلماء الشرقيون لدراسة ثقافاتهم وتراثهم الطويل العريق ومجتمعاتهم التقليدية ؟ وما هى اسهاماتهم فى حركة (الاستشراق) او على

الاصح الدراسات الشرقية التى ظلت لقـرون طويلة وقفا على العلماء الغربيين ؟ صحيح ان هناك حركة نقد قوية يقوم بها الآن عدد مـن العلماء الشبان فى مختلف بلاد الشرق تهدف الى فحص التراث الذى تركه المستشرقون الاوائل وتقويمه والرد على الاراء والافكار التى تصـدر عن (المستشرقين) المعاصرين ، وصحيح ان هذه الحركة تلقى كثيرا من الضوء على بعض الجوانب الخفية فى التراث الشرقى نفسـه ، وتوضح بعض النواحى التى لم يستطع (العقل) الغربى فهمها على حقيقتها ، كما انها تكشف عن الدوافـع والاهداف التى تكمن وراء كثير من الاعمال التى قام بها المستشرقون ، ولكنها تبقى بعد هذا كله حركة سلبية الى حد كبير ، خاصة وان الغالبية العظمى من علماء الشرق لا يزالون يعتمدون فى كتاباتهم على ما تركه لهم هؤلاء المستشرقون ، ويكاد دورهم هم ينحصر اما فى ترديد الافكار والاراء والنظـريات التـى وردت فى اعمـــال المستشرقين ، او نقدها ومحاولة تجريحها ، دون ان يكون هناك اسهام ايجابى وخلاق الا فى القليل النادر . والكتاب الشرقيون حين يتخذون هذا الموقف السلبى انما يؤكدون من حيث لا يدركون دعوى الغربيين ــ او بعضهم على الاقل ــ عن سمو العقلية الاوروبية او الغربية بوجه عام، وسيطرتها وعجز العقلية الشرقية عن الخلـق والابداع والابتكار والاكتفاء بالمحاكاة .

وقد يكون من العسف والاجحاف ان نصف كل هؤلاء المستشرقين بانهم كانوا فى دراساتهم وكتاباتهـم وفى اتخـــاذهم الشـرق موضوعـــا لتخصصهم يصدرون عن الشعوب بالاستعلاء ، وهو الراى الذى يتردد بكثرة فى كتابة ادوارد سعيد ، كما نجده متضمنا فى بعض الكتابات الاخرى التى تصدر عن اقلام شرقية فى مجال تأريخها لحركة الاستشراق والمستشرقين ونقد كتاباتهم . وربما يكون مرد هذا الراى ليس موقف التعالى من جانب المستشرقين بقدر ما هو الشعور بالنقص والعجز من جانب الشرقيين انفسـهم ، وعدم القدرة ــ لاسباب قد تكـون خارجة عن ارادتهم ــ عـن مجـاراة حركـة الاستشراق فى حجم المجهود الذى بذل ، والعمل الذى تم انجازه على ايدى المستشرقين حتى الان، وذلك فضلا عن الشعور الطبيعى بالاستخذاء حـين يحس الشرقيون انهم (موضـوع بحث ودراسة) من غيرهم كما لو كانوا (حيوانات معملية) يجرى عليها الاخرون بحوثهم دون ان يسهموا هم فى ذلك شيئا . والوضع هنا يشبه الى حد كبير الوضع فى الدراسـات والبحـوث الانثروبولوجية الميدانية التى كان يجريها علماء الانثروبولوجيا الاوائل على الشعوب غير الغربية، وكانت تقابل فى احيان كثيرة بكثير من الامتعاض والاعتراض والهجوم من جانب القلة المثقفة فى تلك المجتمعات . ولم تتوقف حملات التشكيك فى اهـداف الانثروبولوجيـا والنقـد للكتابـات الانثروبولوجية الغربية الا بعد ان ظهر جيل من الانثروبولوجيين (الوطنيين) فى افريقيا واسـيا وغيرها ، اسهموا بجهودهم فى دراسة الثقافات التى ينتمون اليها ، وتغلبوا بذلك على مشاعر النقص والعجز التى كانت تستحوذ عليهم وتتحكم فى مواقفهم ضد الانثروبولوجيا والانثروبولوجيين.

وليس في هذا القول اي محاولة للتهوين من شأن الانتقادات التي يوجهها العلماء الشرقيون للمستشرقين ، كما انه لا ينطوي بالضرورة على الدفاع عن موقف هؤلاء المستشرقين من الشرق الذي هو موضوع تخصصهم . فلقد سبق ان رأينا مدى التحامل الذي تتضمنه كتابات الكثيرين منهم ، وبعض هذا التحامل ينجم عن عدم القدرة على التغلغل في فهم (العقل) الشرقي و (الروح) الشرقية ان صحت هذه التسمية ، ولكن البعض الاخر يأتي نتيجة لموقف متعمد ضد الشرق والشرقيين ، كما يظهر مثلا في كتابات برنارد لويس Bernard Lewis الذي يتمتع بمكانة علمية ممتازة في عالم الاستشراق . وتتضمن كتابات لويس كثيرا من الهجوم والتهكم والسخرية من العرب والاسلام ، وان كان يغلف ذلك كله في اسلوبه البارع بحيث يكسب كتاباته مسحة من الموضوعية المزيفة ، في الوقت الذي يكيل فيه الاتهامات للاسلام ويصفه بانه دين معاد للسامية او على الاصح « ايديولوجية معادية للسامية » . وان المسلمين كغيرهم من الشعوب التي رزحت لفترة طويلة تحت وطأة الاستعمار عاجزون عن قول الصدق او رؤيته او تقبله . وهي اقوال انتقلت الى بعض الكتاب العرب والمسلمين الذين يرددونها بغير مراجعة. ولكن الامر يتطلب من العلماء في الشرق ان يتخطوا مرحلة التصدي للكتابات الغربية بالنقد والتقويم الى الدراسة الجادة العميقة ، والتغلغل الى اعماق التراث الشرقي الوفير العميق ودراسته وعرضه والتعريف به . ومثل هذه الجهود يجب ان تلقى ما تستحقه من توجيه وتشجيع ، ليس فقط من المنشآت والمعاهد العلمية ، بل وايضا من الحكومات ، لانها جهود تهدف ليس فقط الى التعريف بالشرق وتراثه وانما سوف تحقق في اخر الامر توكيد الذات واثبات الكيان وفرضه على الاخرين .

* * *